

«ليلة القدر» عظيمة الأجر



من الحقائق الثابتة التي ذكرها الله في كتابه الكريم هي ليلة القدر التي نزلت سورة كاملة فيها باسم سورة القدر (إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ). وهي ليلة عظيمة يكتب فيها لكل إنسان قدره السنوي وما يجري عليه من أحداث الخير والشر إلى مثل هذه الليلة من العام الذي يليه. والمراد بالقدر هو المقدرات الإلهية للإنسان التي تتجاوز إرادة الإنسان وتمضي به في المسار الذي أراده الله له والذي عبّر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله: (الْقَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى. وما قال فيه أمير المؤمنين (ع): الْقَدَرُ سِرٌّ مِنْ سِرِّ الله، وَسِرٌّ مِنْ سِرِّ الله، وَحِزْرٌ مِنْ حِزْرِ الله، مَرْفُوعٌ فِي حِجَابِ الله، مَطْوِيٌّ عَنْ خَلْقِ الله. وقد أوضح بعض معالمة الإمام زين العابدين عندما سأله رجل عن عمل الإنسان وعلاقته بالقدر فقال (ع): إِنَّ الْقَدَرَ وَالْعَمَلَ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، فَالرُّوحُ بَغِيرُ جَسَدٍ لَا تُحَسُّ، وَالْجَسَدُ بَغِيرُ رُوحٍ مُؤَرَّةٌ لَا حَرَكَةَ بِهَا، فَإِذَا اجْتَمَعَا قَوِيَ وَصَلُّحَا، كَذَلِكَ الْعَمَلُ وَالْقَدَرُ شَيْئَانِ لَا يُحَسُّ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْعَمَلُ بِمُوافَقَةٍ مِنَ الْقَدَرِ لَمْ يَمُضْ وَلَمْ

يَتِمُّ، ولكنَّهُما باجتماعهما قويا، وفيه العَوْنُ لعباده الصالحين. فالمقادير في نهايتها كلها تعود إلى ولكنَّه أعطى جزءاً منها للإنسان ليتصرف فيه بإرادته واختياره بدون قهر أو جبر (وهو في ذلك ضمن إرادة الله ولا يخرج عنها) وأبقى الجز الآخر لإرادته الإلهية المباشرة، سواء اتصف التقدير الإلهي بالتوفيق والتيسير والألطف الإلهية لعبده أو بالصدِّ والمنع والعقوبات الإلهية، فإنَّ قدر الله هو الغالب والمهيمن على الإنسان، مع أنَّ بعض هذه الألطف أو العقوبات ترتبط في جزء منها بعمل الإنسان وانعكاسه غير المباشر عليه أو على بعض أمور الحياة عموماً. عن أمير المؤمنين (ع) قال: الأمرُ بالطَّاعةِ، والنَّهْيُ عن المعصية، والتَّكْيِينُ من فعل الحَسَنَةِ وترك المعصية، والمَعُونَةُ على القُرْبَةِ إليه، والخِذْلَانُ لمن عَصَاهُ، والوَعْدُ والوَعِيدُ، والتَّعَرُّيبُ والتَّهْرِيبُ، كُلُّ ذَلِكَ قِضَاءُ اللَّهِ فِي أَعْمَالِنَا وَقَدَرُهُ لأَعْمَالِنَا. ولهذا كان الحثُّ لأهل الإيمان على الاستفادة العظمى من ليلة القدر باعتبارها ليلة تثبيت المقادير السنوية حيث يكون تقادير الإنسان لمدة سنة قد حُسمت في ليلة القدر كما في الحديث عن الإمام الباقر (ع) عندما سأله أحدهم عن قول الله عزَّ وجلَّ (إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (الدخان/ 3): قال: نعم، هي ليلة القدر، وهي من كلِّ سَنَةٍ في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر، قال الله عزَّ وجلَّ: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) (الدخان/ 4)، قال (ع): يُقَدَّرُ في ليلة القدر كُلُّ شَيْءٍ يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل (أي السنة القادمة) من خيرٍ أو شرٍّ، أو طاعة أو معصية، أو مولودٍ أو أجلٍ أو رزقٍ، فما قُدِّرَ في تلك الليلة وقُضِيَ فهو من المحتوم. وفيه المَشِيئَةُ. فقليل له (ليلة القدر خيرٌ من ألف شهرٍ) أيُّ شَيْءٍ عَنِهَا؟ قال: العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير، خيرٌ من العمل في ألف شهرٍ ليس فيها ليلة القدر، ولولا ما يُضَاعَفُ للمؤمنين ما بلغوا ولكنه الله عزَّ وجلَّ يُضَاعِفُ لهم الحسنات.

ورغم أنَّ الله قد أخبر عباده أنَّ ليلة القدر هي في شهر رمضان وفي العشر الأواخر منه ولكنه أخفى وقت ليلتها عنهم وذلك لكي يتسابق العباد إليها ويجهدوا في الحصول عليها والفوز بها، علماً بأنَّ التوفيق لهذه الليلة يتأثر كثيراً بأعمال العباد في شهر رمضان خاصة. عن الإمام الصادق (ع) قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا دَخَلَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ شَدَّ المِئْزَرَ واجْتَنَبَ النَّسَاءَ وأَحْيَا اللَّيْلَ وتَفَرَّغَ للعبادة. وعن أحد أصحاب الإمام الصادق سأله عن قوله تعالى: (إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) فقال (ع): نَعَمْ، هي ليلة القدر، وهي في كُلِّ سَنَةٍ في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر، قال الله عزَّ وجلَّ: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) أيُّ يُقَدَّرُ في ليلة القدر كُلُّ شَيْءٍ يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابلٍ من خيرٍ وشرٍّ وطاعةٍ ومعصيةٍ ومولودٍ وأجلٍ ورزقٍ.

